سيرة عزبة الجسر

سعد الدين حسن



سيرة عزبة الجسر

متوالية قصصية

سعد الدين حسن

لوحة الغلاف للفنان : شعبان مشعل

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٢٧٨٨

الترقيم الدولى: I.S.B.N 977-291-078-0



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ :عبير كمال خضر

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

سعد الدين حسن

سيرة عزبة الجسر



طبع هذا الكتاب

بدعم من

صندوق التنمية الثقافية

إهداء

إلى مسقط قلبي .. عزبة الجسر

الأرض والناس والزرع والمواشي والطيور

ترى هل ستأتين يوماً يا قُرَيَّتي

عند قبري فراشة بيضاء .

قُرَيَّتي والحقول ، توءم بديع يؤجج
كل منهما الآخر بالسّر والطحين .
حفيف حلم ورفرفة أجنحة " وحيدة وصافية "
عزبة الجسر وهي في حقلها رأت الحياة .

فى النهار لا يحد روحها العجيبة شئ ، وفى الليل تأخذ مكانها بين النجوم ، محاطة بتيجان من النخيل والأرواح والجميز والكلاب والجازورين والنحل والكرنب والحمام والزرائب والهاموش والخبازى والعفاريت والقرنبيط والأحلام والهواجس والبصل وعنب الديب والسكك والترع وطائر زمّار النار ، ولا تلم جسدها حين تطير .

عزبة الجسر صريحة وواضحة ولا تخجل من حقيقتها العارية.

ها أنتِ غير مدركة باللمس ، مثل ريح تهس لنفسها فى الفجر مغطاة بالأنفاس واللهاث والعيون ، مثل سهيم القلب، من بين أوتارك تنسرب الهواجس والأحلام والأخيلة تدفع أمامها أسراب الصور ، هكذا أنت دائما حين تدخلين تحت حِرامك الصوف .

أنت وردة الطلسم والحلبة ، وهن أكمامك ، طنطا شمالاً ، المحلة الكبرى جنوباً ، شبشير الحصة شرقاً ، القرشية والبندرة غرباً ، ها أنت فى المنتصف تماماً ، قلب الكون ومحيطه ، إصغى .... ، لامتدادك وتضاريسك نغمات ناى مصرى عجيبة. أنت عاصمة الوجود إذن يا عزبة الجسر .

ملفوفة بالعزلة ، محفوفة بالحنين ، ترنو طويلا بعين غزالٍ إلى كل ما هو مختبئ هناك ، وإلى كل ما لست ادرى .. !

لا مصاطب ولا سهراية ولا شوارع ولا دكاكين ولا قهاوى ولا حتى " غُرزة " توحد الله ، إلا دكان واحد ، دكان بهيه البندارى والسلام ، وهوائيات بعدد نصف بيوتك الثلاثين ، ومع ذلك تنامين (بدرى) غريبة يا عزبة الجسر !! ، صحيح ماذا تفعلين فى شويرعين صُم بُكم ، شويرع المسقى .. هُس .. هُس، شويرع الغتام.. هُس.. هُس ، وزقَاقين ، زقاق الشيخ حسنين أبو حجازى إمام وخطيب الزاوية ، وزقاق بهية البندارى ، والجسر المحازى للترعة يشغى بالنحل والضفادع والهاموش وصراصير الغيط وأخوات الليل .. آه يا بنت الـ ....

هاهنا الحقول تزهزه دوماً كالسماء ، وتزهر بالذُّرة والقمح " فترفرف العصافير فوق الطاحون .

يا أيها الطائر المهاجر ، حين تزورنا ، بيوت قُرَيَّتِي الكامدة ما أن تراك حتى تود أن تروى لك شيئا ، ستحدثك حتى تختلج روحك وترتعش أحشاؤك ، إصغ لها رجاء ولا تضجر .

إصغ - تراتيل من جوامع الروح تشجو ، ياله من حوار بين البيوت والحزن .

تنفجر فى قلبى غابة من الحزن المدوِّى ، حين أراك يا قُرَيَّتى ، عناقيد من المقابر الحيّة .

أين أنت ، فى أوج تحليقك فوق البيوت المجمجمة ، لعل المانع خيراً يا آذان الدّيكة .

معقول ..!؟ مرسيدس ٢٠٠٠ جمرك نوبيع فى عزبة الجسر..!! ، والبنت نجاة تغمض عـينى الوجود وتـلقى بنفسـها من فـوق سطح دارهم..!؟

هل يتقافز حولى هذا العصفور المرح،ليعرف فيم أفكر..!؟

مّرت من أمامى كنهد مجنون ينمو ويشب كظبية نزقة ، إذا صافحتك ، صافحتك بيدين من لحم وحلم ، تمشى إلى هدفها بخطى ثابتة كالظلال ، كثيرا ما تراها تعدو فى عدة اتجاهات ، كأنها تمضى لتفتح أبواب فضيحة. البنت سناء البياعة .

كلما أوغلت السنابل فى الإصفرار ، زقزقت البيوت والعصافير.

لاشئ من متاع فى دارها المبنية من غصون الروح ، غير الكآبة والنعاس ، أم ابراهيم الحداد ، يوميا ، وهى مرمية فى نعاسها ، يمر عليها النهار كله ، ساحباً ذيله الطويل .

يشتعل قوس قزح فى قلبك ياليل قُريَّتى للتو ، حين ترى حزنك الوخّاز فى رقة الجفن .

كل خطوة من خطواته تشى بكارثة ، تدور عيناه اللئيمتان فى كل اتجاه ، منقار شر ، يفتح الجروح القديمة ، ويطلق الإشاعات وطيور الشؤم فى الأزقة والدروب ، طائر زمّار النار ، محمد البهنسى .

كلما فاحت من دارنا رائحة السمك المشوى ، تكاثرت أمام بابنا القطط والعيال .

هاهو فى إطراقته كل صباح على باب داره، أكثر صمتاً من ظله.

هى امرأة غير مأمونة ، غيباً ومشهدا ، إذا الشر أبدى ناجذيه لها، طارت إليه كما تطير النار فى الهشيم ، راوية الغنام .

الطير وصفاء والعنب جيران ، يبيتون والوصل حارسهم، أسرار في خاطر الغيطان تكتمها ، ويكاد لسان الريح يفشيها .

.. ومع ذلك حلو العينين ، بصير القلب ، حسن المضحك ، برق الثنايا ، خفيف العارضين ، إذا نازعك الكلام لا تسأم حديثه ، وإذا أنشد أبر وحسن صوته ، وإذا سمع طرب ، ومتى طرب طاب ، ومتى طاب غاب ، وإذا غاب حضر ، ومتى حضر نظر ، وإذانظر حصل ، ومتى حصل وصل . إمام وخطيب الزاوية الشيخ حسنين أبو حجازى .

تأرّجت البيوت فى الليل،شجيرات الحلم والليمون أزهرت متأخرة .

على باب دارها تأبطت صمتاً وقعدت ، صمتك يا خالة بدرية أعلى من صمت العزبة .

صديقى الصغير ، مات فى الليل على فراشى، الجندب الودود.

منذ ثلاثة أيام والنسوان لا يوجد فى أفواههن إلا سيرة راوية الغنام بعد أن رأتها بهية البندارى تقف فى الظلمة مع منقار الشر محمد البهنسى تحت جازورينة قدام المسقى .

يمتن ويعرفن فيما كانا يتحدثان .. ! ؟؟ .

تنبح الرائح والغادى ، ولا تنبحنى حين ترانى يا صديقى كلب خضرة الوزير ، بالله حين يطير بك حلم قزحى لأرضٍ ما ، لا تنسانى .

هاهنا كان يقعد فى جلباب عمره البُنّى ، يداعب الرائح والغادى ويحلم ، ولا يدرى من أية شجرة تأتيه رائحة ذكرياته .

حمارنا رقد فى التراب يتمرغ ، مثيرا الغبار فى وجه أخته شجرة السنط ، فتساقطت دموعها زهوراً صفراء بللت جسمة كله ، وإذا بزمرة عصافير ترفرف فوقه وحواليه تزقزق ، فنهض وطيب الجسم مغموراً بالأصفر الشجرى ، تفوح من فمه رائحة السنط والزقزقة .

نصبن القعدة ، بهية البندارى ، هانم الدخاخنى ، خضره الوزير وام ابراهيم الحداد بعدما أفاقت من نعاسها الكئيب ، وراحت الألسنة تلُغ فى البنت سناء البياعة ومنقار الشر محمد البهنسى بعدما عرفن كيف أخذ " سيغتها " بعدما عشّمها بالزواج ، وباع لورد شيخ البلد خلسة بعدما اشتغل عليه يومين وساب العزبة وطفش ، ولا أحد يعرف له طريق جرّه .

يا صديق العصفور المرح،لم اسمعك تزقزق طيلة هذا النهار؟
ثمة رائحة زرقاء تفوح ، حـاذري يا عزبة الجسر ، روحك لا تعرف خط سيرها !

في زقاقنا اليوم ،دون أية جلبة ، مات إنسان بسيط .

وهن يضممن الغلَّة يغنين بصوت عال يومياً ، ألآن كل ما فيهن يشي بالفقر يغنين هكذا كثيراً " يا حلوة ضُمى الغَلة .. عود على عود نسّله "

تصحو من النوم فى ملامح صبح يغادر سريره فى تؤدة ، يفرك عينيه ولا ينفض عن جلبابه الندى ، فى الغيط تراها غزال إنسٍ يرتعى فى المروج، وفى دارها كأنها النار يشب وقودها بلظاها ، وحين تنام ، تراها مبتسمة مثل ملاك صغير ، عزيزة بنت خضره الوزير .

من أول الجسر حتى آخر الغيطان ، ما أجملها رائحة حميمة ، غبار " دِراس " الغلة يتطاير فى كل الجهات .

بقرة جارنا تخور ، وهو يصرخ ويتسخط والحمار يواصل النهيق والعنز لا تنطح المأماه ، يا جيراننا الأعزاء متى تكفُّون عن شجاركم اليومى :!؟

هجرتك العصافير يا نخلة دارنا ، حلّقى وراءها .

ما أجملك يا خالى مُزيناً بالغبار والتبن ، يا جرن ما أجملك مزيناً بالغلة ، ما أجملكن يا بنات مزينات بالتعب .

فى هذا الخلاء الرحب ، يأتى كل يوم فى الوقت ذاته ، يسعده كثيراً رؤية حوضه المتألق بالخس الطرى .

أمـام المسـقَى سـقط فى شَرَك أطلال دارهم الطـينيـة القـديمة ، فوقف يتـأملها ويتصـعّب ، هنا كانت المصطبـة ، هنا كانت المندرة ، هنا كان زلوع الخزين ، هنا كـانت الزريبة والفرن وطوالة المواشى ، وهنا كـــان الحـــاج عـبـــد العليم يـحكى لنا حكـاياته مع الانجليـــز والاسرائيليين فى حرب٥٦، يا ألطاف الله ..حتى البيوت تموت..!

حين يناوشـــهـا هاجس صـوت ، أو خـمـش على باب دارها ، تضرب عزيزة بيـدها على صدرها (يا لهوى) ثم تعود لحـالها أمام التـسريـحة ونافـورة فـرح جزلان تفـيض وتغـمـر ليـمون صـدرها والحجرة بمائهـا الدافئ ، فتغنى : افتح الباب يا حبيبى دانت مسكى وطيبى ، خدتك من نصيبى، من دون العذارى .

من فوق سطح دارنا أختى تلقى على الأرض جنب العجين الخمران، أقراص جِلّة ، حطب قطن ، عرانيس ذرة ، فترفع الفرن رأسها وتطيّر وراء ظهرها ضفائر الدخان .. ياه .. منذ متى لم نأكلك يا أبًورى بالسمن والسكر .. !

بدت سناء البياعة كالتفاحة المعضوضة بعد هروب محمد البهنسى " بسيغتها " .

على مرمى كلمة جلست جنب خالتها بآذان مصغية :

" شوفى يا حبيبتى آيسى على ميت جنيه وهاتى المشبشبة الشيخة خضرة الدكرورى من جنب السيد البدوى مدام عايزة منقار الشر يرجع لك تانى ، يا خاية دا واد لِعَبى

- أنا بحبه يا خاله .

- أهو خد سيغتك وطفش يا فرحة أمك بيك .

- يا خاله القلب وما يريد .

- أنت حره يا حبيبتى ، أنا نبهتك والأمر لله .

ومع ذلك قعدت على عتبة بابها ، مفرودة كورقة سقطت عن وردتها لتوها .. فرار فرحة .

ترى ما هذا الذى تسلل إلى بيوتك خلسة يا قُرِيتًى ، وعلى القلوب استوى ، فسقَق الشجن .

ثمة بخور شارد ، ومعانٍ تحترق ، وساعات حجرية مفرطة فى الثقل .

حب وداري واكره ووارى .. الظاهر لنا والخفى على الله .. جعان ويقول مش لازم .. بعد ما أكل واتكى قال ده رحته مستكى .. زى قراية اليهود تلتينها كذب .. احتاجوا ليهودى قال اليوم عيدى .. ضلالى وعامل إمام والله حرام . يفتى على الإبرة ويبلع المدرة .. والوش وش حاجج والطبع مايتغيرش .. زى القطط يسبح ويسرق .. هات عمتك وخدها يوم القيامة . قلت للشيخ حسنين أبو حجازى - ما قولك فى كل هذا القدر من سوء النية يا مولانا .!؟

قال مولانا - يا أستاذ وماذا تفعل لو عرفت أن بلدنا فيها سبعة أنواع من الأمثال ، ١- الانشاء والاخبار -٢ القول والعمل -٣ الداخل والخارج ٤- القدرية والعجز ٥- سوء النية ٦- الدين والدنيا ٧- الله والسلطة .

قلت - لا تقل لى شيئاً ، سأجمعها بنفسى وسأبدأ من الآن الحمد لله عثرت على موضوع رسالتى للماجستير .

بعد أن صبغت الشيخة خضره الدكروى وجهها ويديها بالسواد، ارتدت جلبابا أسود ونشرت شعرها على كتفيهـا ثم امسكت بثلاث تفاحـات واطلقت البخور بين يـدى سناء بعد أن فركت فـيه نصف قرش حشيش .

صاحت وهى تطلق مزيداً من البخور :

يا عفاريت ، يا نفاريت

يا جنى الجبال

يا سكان البحور ، يا عمار البرور

يا بعاد فى البرية ، يا قاتلين الدورية

يا مخالفين سليمان ، يا مبرطمين فى الوديان

بكيت لكم

تعالوا ساعدونى مع نجوم السما .

تخدرت الشيخة خضرة بعد أن نفخت كثيرا فى البخور الذى حوّل الحجرة إلى خيمة زرقاء ثم صاحت ثانية :

مسا الخير عليكم

يا نجوم العشا ، يا صفر زى المشمشة

أنا حدفته بتلات تمرات

أحدفوه بتلات جمرات

امسكت الشيخة خضرة بتـمثال من الطين لرأس محمد البهنسى وجعلت ترميه بالتفاحات الثلاث قائلة :

محمد ابن فوقيه

جمره تيجى على عينه ما يشوف حد غيرها

جمرة على لسانه ما يكلم حد غيرها

جمرة على ودانه ما يسمع حد غيرها

نفخت فى البخور وأكملت كلماتها :

مسا الخير عليك يا قمرنا يا جديد

يا اللى أبوك الجمعة وامك العيد

يا زهرة ، يا باهية
يا ام العيون الساهية
خدى لى من شعر محمد ابن فوقيه
تلات شعرات
تخبطيه وتلخبطيه وتجيبيه
وعند باب سناء بنت صالحه وتسيبيه
مسا الخير عليك يا سنداس
يا سنداس يا مكشوف على الأسرار .

ثم امسكت الشيخة خضره بأحد نعليها وضربت الأرض سبع مرات وهى تقول :

يا سنداس فين الإخوان

هاتوه وقيدوه

وعلى بابها اطلقوه

وأمرت سناء أن تردد معها :

جاجه يا جاجه

هاتيه وعلى راسه عجاجه

حزمته ...

دككته يدككنى

ما يسمع غير كلمتى .

أشارت الشيخة خضرة إلى جو الحجرة الأزرق قائله :

يا زوبعة يا شاطره

عندك شياطين حاضره يا لا روحى له الحاره

بالجن زى الطياره

جرجريه واضر بيه وشيليه وعند المسكينة

سناء وحطيه .

يا حابى .. يا حابى

يا سامع وجابى

هات محمد ابن فوقيه مصطلح موش غضبان

إن دخل نفق وإن طلع نفق

خلو نجمى ونجمه عندكم متفق .

تأمل معى يا مولانا:

فى الله والسلطة :

متش رب أخاف منك .. لا يذكر الله إلا تحت الحمل .. ارقص للقرد فى دولته.. يا فرعون من فرعنك قال ملقيتش حد يردنى .. مع هيبته ينشتم فى غيبته .. ركب الخليفة وانفض المولد .. من زادك زيده واجمل ولادك عيده .

فى الدنيا والدين :

تقرا مزاميرك على مين يا داود .. هاتوا م المزابل حطوا ع المنابر.. ما كل من لف العمامة يزينها .. الصلاة أخير من النوم قال جربنا ده وجربناده . كل شئ عادة حتى العبادة .. ساعة لقلبك وساعة لربك .. كل لقمه فى بطن جائع أخير من بناية جامع .

فى القدرية والعجز :

المكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين .. المكتوب ممنو مهروب .. البخت يتبع أصحابه .. قيراط بخت ولا فدان شطاره .. اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب.. مطرح ماترسى دق لها .

- عن إذنك يا مولانا ، آخر النهار اقولك على الباقى ونتكلم .

إصغ .. فى كل دار .. هسهسة أسئلة .. ؟

على أول الجسر ، مثل غيمة ساكنة تقف وداد منذ ساعات شاردة الذهن .. !

هاهنا ، فى مملكة العظام ، حيث توارى الطيب والشرير ، تبدو الزهور البرية كالعلامات الهادية .

كنا واقفين عند القدرية والعجز ،خذ عندك يا مولانا :

في الداخل والخارج :

زى الحما فاضيه ومشبوكة .. ما كان ناقص على ستى إلا طرطور سيدى .. يا شايف الجدع وتزويقه يا ترى هو فطر ولا على ريقه ..زى حمير العنب تشيله ولا تدوقه .. زى بوابة.. جحا وسع على قلة فايدة .. زى بعجر البيه ما فيه إلا شنبات .

في القول والعمل :

اكتم سرك تملك أمرك.. يا قلب يا كتكت اسمع الكلام واسكت.. يا عينى إن شفتى ما رأيت وان شهدوكى قولى كنت فى بيتى..خلينا ساكتين متوديش نفسك فى داهية.

في الإنشاء والإخبار :

كلمة يا ريت ما عمرت ولابيت .. لو كان الحب بالخاطر كنت جيت بنت السلطان .. طمعنجى بنى له بيت ،فلسنجى سكن له فيه ..زرعت شجرة لو كان وسقيتها بمية يا ريت .

قال الشيخ حسنين - هذا الجوهر العميق المتنوع لشعبنا يا أستاذ هل يمكن هزيمته بسهولة ؟

- لا أظن يا مولانا ، طبيعتنا من طبيعة طوبوغرافيتنا المتنوعة ، لا تهزم أبداً .

أحلام صغيرة . . أحلام كبيرة - كثيرة هى العناقيد .. عزبة الجسر تنفرط إلى مئات الحبات فى الليل .

حزيناً ارتفع فوق البيوت ، وفوق الأشجار تسامق ورفرف فى الأعالى .. طيران حلم .

عم الليثى رغم بلوغه السبعين يذوب فى أرضه كما يذوب الملح .. ما إن تنفس الصُبح حتى أخذ الرجل فى الحرث ، يحرث ، يحرث ، يحرث ، حتى بلغ أقصى ما عنده وما استراح هنيهة ، يحلم بالقطن والتبن ، وليس ضميره فى الصدر إلا الذُّرة .

وقف العصـفور المرح صـامتـاً تماماً ، لا يخفـق ولا يرف ، كأنه يستمتع برؤية أمي وهي تأكل المش والسريس.

على عتبة بابنا ، قعد حكّاء عتيق ، كان ياما كان ، فتحولنا جميعا إلى آذان وعيون ، جـعل يحكي ويحكي ويحكي ، ياه كـم تبدو دارنا ضيقة جداً .

عم خليل الوزان المقطوع من شـجـرة ، منذ يومين بلغ الخمـسين وقبـل أن يبلغهـا بشهـرين عشق البنت عـزيزة بنت خضـرة الوزير ، وتفاقم عـشقـه واعتلى ونما وزاد وأورثه الهزال والـسقم ، نراه تحت جميزة الغنام ، صـحوه يتكسر على صحوه ، وهجعتـه خفقة ، يكاد يجري من جلبابه لولا جلبابه يمسكه .

يا للحظ اليوم ولدت بقـرة خالى ، وماكينة الميـاه مكسورة والرزُّ لا بد من ريّه اليـوم ، ماذا يفـعل ٠٠٠٠٠؟ اسـتبقـر الحمار لتـدوير الساقية ، فالرز يحتاج ماءً كثيرا ، وضع الغشاوة القماش على عينى الحمار ونزل الرز ، فيمـا أنا رحت أدور مع الحمار أريّت على ظهره وأدندن ، يا ساقيه دورى ورشى من وره ، واسقى غيط الرز وحوض الكسبره، لحيظات، وتدفقت المياه غزيرة، أفرح يا رز.

العيال فى ألوان جلابيبهم ، يتقافزون فى نصف دائرة ، فيصاعد الغبار الملون متقداً ، قوس قزح يلعب فوق الجسر .

لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، استيقظ قلب وزقزق عصفور محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين ، نهض خرير المياه مبتهلاً ، الصلاة خير من النوم ، نسيم المسك سرى فى اكتمال زائد ، الصلاة يا مؤمنين الصلاة ، صرير الأبواب خرج من مضيق نعاسه باتجاه الزاوية ، الصلاة يا مؤمنين الصلاة ، تسامى آذان الديكة فى رقته ، وسبح الكروان، الملك لك لك يا صاحب الملك ، الصلاة خير من النوم ، القلوب النواظر ضُلِّعتْ بالإيمان أضلعها ، والبيوت لندى الآذان راقعة الجفون .

بالله لا تنقطعى عن قلوبنا يا بهجة الفجر .

فى السادسة صباحاً ، تحش عمتى حفيظة البرسيم لمواشيها ثم تغفو على رأس الغيط حتى مطلع الشمس ، بأي حلم تفرح هذه البطيخة فى حضن الندى .. !

ما إن رأوه أمامهم - الكلب الغريب - حتى اشتدوا نحوه فى نباح صاخب وسرعان ما اشتبكوا به لمراغمته على الفرار ، ما إن تخلص من أسنانهم وأرجلهم حتى انطلق يعدو مع ملاك الريح ، بإتجاه الغيطان ، وحين تأكدت كلاب السكك من هروبه بعيداً ، عادت إلى مرابضها تهز أذيالها ، وفى قلب البرسيم استقبلته كلاب الغيطان بنباحها الرصاصى ، فانطلق يعدو بإتجاه الترعة الغربية ، تعدو وراءه وتنبح، ويعدو ولا ينبح ، وبأقصى ما في قلبه من قوة قفز طائراً للحافة المقابلة ، وسقط يلهث في احضان نبات ذيل القط مهوى أفئدة العصافير ومقصد الفراشات الناعسة ، ظل يلهث ونظرات قلبه الحزين تمتد إلى هناك ، زهرة التيل المنطوية على نفسها هزت رأسها تحييه بينا نبات ذيل القط يحنو عليه..يا رحمة للغريب .

الحزن ، الحزن ، يهطل بلا توقف من دار إلى دار تنساب قطراته في هدوء ..

بعد أن خبأوا عزيزة عن عينيه ، جلبابه لم يعد يمسكه ، هاهو عم خليل الوزان يهيم فى العزبة حافى القدمين مشقوق الجلباب من الصدر والجنبين يصرخ .. يا عزيزه .

صباح كل جمعه يأتى من رحاب السيد البدوى يحمل على صدره بخوره الحميم وبين أصابعه عـود بخور مشتعل تتضوع رائحته مسكاً تجاه البيوت ، يتوقف فى منتصف زقاقنا وينادى بصوته القضى يا ملح يا مليح ، يا ولد يا فصيح ، أمك الحرة وابوك المليح ، بخروا اللحاف يمنع عنكم وجع الاكتاف ، بخروا الكتكوت ياكل ولا يموت ، بخروا المغرفة من عين ام مصطفى ، ثم يتمايل يمينا وشمالا ، بخرت المشنّة من عين أم سنه ، بخرت السلالم من عين أم سالم ، بخرت الفيران لاياخدوا العيش يدوه للجيران. وسرعان ما تتحلق حواليه النسوان والعيال .

أهالى العـزبة هرولوا على بكرة أبيـهم يعـزفـون أغـنيـة الزرع والقلع فى الغيطان ، فيما العزبة ببيوتها الجهمة فى صمتها البنى تصغى للنغمات الشاردة وتجمجم ، وفى زاوية المنظر بعض النسوة على حافة المسقى يثرثرن ليلتـهن الفائتـه وهن يغسلن الأوانى ، وعلى رأس غـيط بجوار المسقى بعض البنات يغنجن ويتـضاحكن وهن يعبئن البصل فى أجولة حمراء ، ياله من منظر يومى .. !!

كل حين ومين ، يأتى أحمد القمّاش من المحلة الكبرى إلى هاهنا ، يدور على البيوت بيتاً بيتاً ، يعرض أصناف أقمشته بأسعار مها ودة (فورى وبالتقسيط) ولما يُحصّل عشرة جنيهات فقط والباقى بالتقسيط، ينتكب بؤجة قماشه على منكبيه العريضين ، صائحا بصوت عالٍ وهو يغادر العزبة ليسير يطوى الأرض (عزبة فقر) وعلى آخر باب فى زقاقنا ثمة ابتسامة تتأمله وتتسع .

طفلى المسكين ينام مبكراً كل ليلة جوعانا على حصيرة
أحلامه .. زقاقنا .

حمارك الهزيل يزداد ضعفاً و يتمايل فوق الجسر نصف نائم
كلما انحنى ، كأنه أنت يا عم جمعه .. !

يهيم عم خليل الوزان حتى ينتهى به المطاف جوار الشيخ حسنين أبو حجازى تحت جدار داره فيأخذه فى حضنه يمسد شعره ويربت على كتفيه قائلا له - حالا عزيزة تكون هنا ، فيبوس يده ويبكى ، يسرع الولد جمال ابن هانم ليشاكسه فيبادره الشيخ حسنين - كن فى حالك يا ولد ، الرجل مريض بداء الهيمان .. تعرف معنى الهيمان يا ولد .. الهيمان يا بليد من الهيام .. وهو داء يأخذ الإبل فلا تروى ابدا حتى تموت من العطش .. فهمت يا ابن هانم . قال الولد جمال - يعنى عم خليل فى الباى باى يا مولانا ، فرفع مولانا عصاه مهددا - غور من قدامى يا فج ، وتنفس تنفسة كاد حرها يطير بلحيته .

كيف تحولت بهذه البساطة يا فدان عبد الواحد إلى " مصنع علف " أنظر .. من يمنة لن ترى الأشجار موطن الأشجان والطيور والأفكار ، ومن يسرة لن ترى أكوام السباخ والجداول والقنوات تعطيها العصافير زقزقاتها ، ولا زرع يستقبل زخات المطر ! (فلبيك الغمام مصابه) .

فى ركن الزريبة وهو يضع أمامها غُمر برسيم ، ظلت تنعر وتتمسح به ترجوه أن يناديها باسمها ، ربت على ظهرها ، مبتسماً وصاح فيها " تعالى الناحية دى يا جاموسة " .

فوق الجسر ، يسيران معاً ، تحت رذاذ الشتاء ، لا يكفان عن الحديث ، قلب وليل .

طفلة جارتنا – ندى – تبيع الحلوى فى القطارات ، فى قلب أمها واخوتها ، ندى، خطفتها الملائكة اليوم من تحت عجلات القطار وهى تضحك وطارت بها فى الأعالى، الندى سريع الزوال.

ومع ذلك يا قُرَيَّتى روحك لا تعرف التجاعيد .

في مولد سيدى عبد الغنى ، قعدنا أمامه نحن الأربعة ، فابتسم الوشّام فَرحًا ، نقش الأول أسداً على ظهر كفه اليمنى ، نقش الثانى وجه امرأة على ذراعه اليمنى ، نقش الثالث ثعبانا على ذراعه اليسرى ، ونقشتُ على صدرى " عزبة الجسر " .

الكون انقبض قلبه وانتفض يوقّع موسيقاه الجنائزية ، العصافير صافات فى سربها فوق المقابر تستقبل نعشه ، الأشجار نكّست هاماتها، الزرع انحنى يصلى عليه ، بيوت العزبة جهورية تندبه ، البقر والجاموس جعل ينعر نعيراً ، الكلاب تعوى حرقة على فقدان قلبه الأخوى ، الغمام تقاطرت سويدائه مصابه ، هدل اليمام وتهدج أذان الديكة. مات عم خليل الوزان .

فى مدخل زقاق الشيخ حسنين أبو حجازى ، نفخ بائع اللعب البلاستيكية زمارته المضحكة ونادى :

حُلقـان للسـتـات الجنان ، أسـاور للبنات الأناور ، عـرايس للجـدعـان الفلايس ، أرانب من بلاد الأجانب ، طيـاره مـصـريه تطير بالميّه لا تقـولى اف ١٦ولا لافـى وانا ماشى حافى اللعبـة بقزازه، تووووت .

فى زحمة النسوان والعيال المتحلقين حول عربته الخشبية اندس ولد مهلهل الجلباب ، حافى القدمين ، مد أصابعه الصغيرة بين اللعب وسرعان ما انفلت يتقافز ، قبض على الطائرة بشدة وحلق بها بعيداً .

لا أحب رؤيتك يا عزبة الجسر حين تجلسين محشوة بالفجاجة، وحين يتبدد عقلك سريعاً كما يتبدد بخار الشاى .

غرقت الترعة فجأة ، وها أنت لا ترى سوى بعض اليراعات تتلامع فوق كتلة من طين ، لا تكن كسولاً يا أيها العصفور المرح وابحث عن جدول قريب .

أورطة عيال ، وأورطة عيال ، هاهما محمد وعلى عبد الحفيظ ، فى أوج شبابهما ، جناحان متهدلان لطائر عجوز .

نسوة خَفِرات ، يتضوعن مسكاً إذا مشين فى وسط النهار أو فى وسط الليل ، إذا مشين على الجسر ، أو تحركن فى الغيطان ، كأنهن يمشين فى مرمر مسنون ، ترى جنيات هاتيك النسوة أم بنات بهية البندارى .. !؟

فى حوش دارنا قعدت أمى جنب الفرن تتشمس ، فجأة دَجَّ الدجاج دجّاً فانزعجت ، وظل يدج ويقأقئ ، يدج ويقأقئ ، فكشحته بيديها وهى تزعق ، غوروا من قدامى يا ولاد الكلب يبتليكم بشوطة، ولما زهقت أخذت الشمس فى جلبابها وخرجت ، وميض فرحة .

فرس عم يوسف العربجى ، منذ أيام لم تقرب التبن والماء هاهى ترنو إلى البعيد ، صافنة إلى الآتى ، خارجة من حلم الصهيل داخله فى حلم الحمحمة ، فى سرعة فائقة ، كأنها تريد أن تضع قدمها عند منتهى بصرها ... !! ؟

كيف تسنى لهاتين البنتين معاً ، أن تدنسا أزهار الفول فى عز نومها .. !!؟

فى الصباح الباكر ، تتطاير العصافير والأهالى مرفرفة لاغطة صوب السّر والغيطان .

فى حضنه قفة خضروات طازجة،مبتلاً تحت المطر المتهاطل ، لكم أنت جدير بما تحمله .

منذ متى تلوِّشين بعصاك يميناً وشمالاً فى السكك والدروب، آه .. يا عيون المها خدرتها أبر الظلام ، الجسر من هنا يا خاله هندية .

على الجسر برد لاذع، يتطلع إلىّ طويلا هذا العجوز المقرور، من أين لى بدثار دفء لك يا عم اسماعيل .. !؟

الله، ياله من طفل جميل فى زغبه المتقد، اليوم يبلغ شهره الأول ، فولنا هذه السنة .

قال الشيخ حسنين أبو حجازى وهو يعبث بلحيته - كيف حالك يا عباس لا أسكت الله لك حساً ، أجاب عباس – والله يا مولانا الوليه كرهتنى فى عيشتى، قال الشيخ حسنين مداعباً – شف يا عباس ابن فرناس ، النساء طبقات ثلاث ، زهرة جميلة ، وجوهرة ثمينة ، وكنز لا يفنى ، أما نساؤنا فحدث ولا حرج ، زوجتى مثلا تفتح – لا كانت – فماً لو رأيته ، توهمته باباً من النار يفتُح ، فلا تبتئس يا رجل وحط همك على همى .

قال عباس – الواحد طهق .. عن إذنك يا مولانا الوقت أزف أنا ماشى لأجل الطلاق . وقام عنه .

قلت للعصفور المرح، لا تلمس قلبى رجاء، فمال من تحته الغصن .

أمام داره مزهواً وقف حماده الشناوى مع الخطاط بجوار عربته النقل التى اشتراها اليوم بعد أن عاد من إحدى الدول النفطية متلفعاً بالفلوس ، قال للخطاط - أكتب على الكبّوت فوق ، متبصش لفلوس غيرك ربنا يهد حيلك ، وتحت اكتب سهران لوحدى والتباع نايم ، وعلى الجنب اليمين ، خمسة وخميسة فى عين اللى ما يصلى ع النبى ، وعلى الجنب الشمال ، الحلوه دى اسمها خوخه مجاتش إلا بعد دوخه ، وعلى ظهرها فى اليمين ، يا ناس يا عسل حمادة وصل ، وفى الشمال ، الحلوه دى من الغربية ، فقال الخطاط متعجباً - وليه مش من عزبة الجسر !

قال حمادة -عايزهم يقولوا علينا فلاحين اشتغل وانت ساكت.

قال الخطاط - آه صحيح أصلك من مصر الجديدة ، فزعق فيه وهو يدخل الدار - يا حبيبى أنا مش فاضيلك ، ابتسم الخطاط قائلا حلوه وسرعان ما اشتعلت أصابعه بالحماس وبدأ يكتبها بخط أحمر كبير (يا حبيبى أنا مش فاضيلك) .

ياه – والله زمان يا عرقسـوس ، أول مرة منذ سنين يأتى هاهنا بدقات طاساته النحاسية المميزة وصوته الرخيم يتغنى بالأغنية الشعبية القديمة " شفا وخمير يا عرقسوس ، ياللى اللمون منك يغير يا عرقسوس، قرب ودوق الحلويات ،وقول يا بتاع الشربات ، نعنشنى ، فرفشنى ، دندشنى ، خمير وشفا يليق للبهوات، ويموت فيه صبيان وبنات ، يشفى قلوب الموزموزيلات ، يا مين يقول يا دقدق هات ، نعشنى ، فرفشنى ، دندشنى ، يا عرقسوس شفا وخمير يا عرقسوس "

أين أيامك الخوالى ، وأيام حلاوة زمان ، وعربة البطاطا المشوية وصندوق الدنيا ، البيانولا ، يا عرقسوس ، شفا وخمير ، يا عرقسوس.

العشب يفرش لك سريره يا سمان ، والجميزة تغطيك بظلها الظليل، وأمامك تكوّم الثمار ، العشب ينده لك الماء ، والريح تأتى تسلم عليك ، يالك من ضيف عزيز .

تحت نغمات الغروب الطيب ، والشمس بنت الخدور تتصوب نحو خدرها يرتعى رعيل البقر والجاموس فى أرضنا فرحاً كأنه يرتعى فى مراتع غزلان فيما البنات فى الخلف يجمعن ثمار الطماطم والفلفل ويغنين - يمسيك بالخير يا فلفل أخضر يا بطيخ مليسى يا حمره يا مجنونة فى تلاليسى ، لولا الملامه وكلام المجاليسى كنت آخد حبيبى واروح ولا اجيشى .

والرجال غير بعيدين يحشّون البرسيم حشاً ، الرعيل كله انطلق إلى المرح وطفولة عمره الأول ، البقر يقبل زهور العوسج والجاموس يداعب عنب الديب والضفادع وبين الحين والحين ينعر للرجال عند البرسيم ويضحك فى مرح طفولى .

ياه .. ما أغباني ، نسيت أسألك قبل سفري ، أي شئ تشتهين يا قُريَتِي .

فوق الجسر رفع نحوها قلبه ، فأشاحت بوجهها ، فواصل سيره رافع القلب ، ما أبهى كبرياء الروح .

في هدأة الليل ، يهدر ويصفر ، يهدر ويصفر ، فيختلجن بشدة بضع شجيرات وروحها .

سكون ، سكون ، ثم صرخة طائر في الليل .

ليكن..لاحاجة بك إلى ضوء الكهرباء يا عزبة الجسر، هكذا أنت.

خلف تلك النافذة المفتوحة ، أغنية لا تنقطع ، خلف هذه النافذة المفتوحة ، نحيب لا ينقطع ، وتحت الجدار طفل يبحث عن شئ ما .

أمسك ولد بتلاليب الآخر يتعاركان ، وإذا بهما يضربان بعضهما ضربات شديدة بعصى من شجر الخروع ، يتقابضان من اللحى التى يودان أن ينبت الشعر فيها ، هل كان لا بد أن تتفى .. ها هنا الآن يا بنت عبد السميع .!

هلا وهبت قلبك اليقظة يا عزبة الجسر ، صمتك هو لعنتك .

جمال لا يُرى .. هسيس روحك فى الفجر .

فى الصباح الباكر ، تهرول أسماء إلى طنطا حاملة الدعاء ومشنة فلفل وباذنجان ، وفى المساء الباكر تعود مغردة، أرغفة وفاكهة على رأسها .

هى متقدة جداً ، وأنت متقدة جداً ، كل هذه العناقيد ..!، يا لخصوبتك الطائلة ، رفقاً بالعناقيد يا خضراء الروح ، من منكما يا سمية شجيرة العنب .. !؟

فى هدأة الليل ، تدور فى الفضاء العالى ، من مكان إلى مكان تنشر خيوط الله الوردية فوق البيوت ، فتنسج القلوب أحلامها ، يا كروان الفجر ، ترى لماذا لم تعد تأتى إلينا .. !؟

فى غبش الليل ، ترفرف روحها تصغى لتنهدات البيوت فى الوقت ذاته .

لا يا عزبة الجسر،لم تمت آمالك العتيقة ، ولا جفت احلامك ، هاهى تتناثر مثل نجمة فى الليل لتضئ البيوت .

كل يوم فى المكان نفسه ، يقرفص دافنا وجهه فى ركبتيه وحيداً، بعد رحيلهما المفاجئ ، كانا يلعبان معه السيجة - فى المكان نفسه - بين الحين والحين يرفع وجهه للحظة متعجباً - ثم يدفنه ثانية ، تراه من بعيد فى الغروب الطيب كأنه يسكن الشفق، عم ابراهيم الجمال فى عودته الحزينة .

فى جوف الليل ، يسقسق طائره ، ويستيقظ قلب وحيد .

أنظر ..الغيوم تتلبد بزهور حزنك وجمالك يا قلبها المفعم .

فى الصباح الباكر، فى المساء الباكر ، امرأة ما تعبر بابى ولا تلتفت .

وراء أى شئ تسعى بحمية فى هذه الأزقة والدروب العارية، أيها القلب المترنح .. !؟

قلبك منذ قليل فارقه الضجر ، هاهو المطر يهطل بغزارة ، والحلم يشجو لك ، ما أرق جمال عزلتك ، لماذا تعبثين فى وجهى إذن .. !؟

ليتنى أموت قبل أن أراك تتساقطين شظايا متفرقة مثل قصيدة رعوية ، يا روحى ، يا عزبة الجسر .

فى آهتك المتوحدة يا عزبة الجسر، كونى لاذعة دونما شنقة .

سيكون لموتى أجنحة ، تاركاً جذورى من الشتول فى كل حقل أحببته من حقولك يا عزبة الجسر .

عزبة الجسر - شبشير الحصة -

غربية ١٩٩٧

صدر للكاتب :

- احترس ..القاهرة - مطبوعات الرافعي مايو ١٩٨٥. (نفدت)

- أول الجنة.. أول الجحيم - سلسلة أصوات - الثقافة الجماهيرية يناير ١٩٩٠. (نفدت)

- سيرة عزبة الجسر .. مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

تحت الطبع :

١- أشجار تنمو على هواها - مجموعة قصصية -مخطوطة.

٢- الرحيل إلى اليابان - رواية - قيد الكتابة.

٣- المشعل والصولجان - دراسات نقدية - مخطوطة .

٤- تموجات السهم الرائى - دراسات فى الفن التشكيلى المصرى - مخطوطة.

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس أبوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى

قصص قصيرة ..

مطربة الغروب	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد نعنم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
قرد حمام	يوسف فاخورى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البيـاتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
متيـسا تنامينـا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض

عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد
في مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد
إذهب قبل أن أبكى	د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
اللعبة الأبدية ... (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية	د . على فهمى خشيم
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
ماجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
خبيات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى

ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
زمن النهاية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
البعد الغائب : نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

فنون ..

ماهى السينما	صلاح أبو سيف
قضايا المونتاج المعاصر	د . عفت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د . مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

سيرة عزبة الجسر

يا أيها الطائر المهاجر ، حين تزورنا ، بيوت قُرَيَّتِى الكامدة ما أن تراك حتى تود أن تروى لك شيئا ، ستحدثك حتى تختلج روحك وترتعش أحشاؤك ، إصغ لها رجاء ولا تضجر .

إصغ - تراتيل من جوامع الروح تشجو ، ياله من حوار بين البيوت والحزن.

تنفجر فى قلبى غابة من الحزن المدوِّى ، حين أراك يا قُرَيَّتى، عناقيد من المقابر الحيّة .

أين أنت ، فى أوج تحليقك فوق البيوت المجمجمة ، لعل المانع خيراً يا آذان الدّيكة .

◆



